الفصل التاسع

مسرح الصم التجريبى

بماذا نؤسس مسرح الصم الجديد ؟

وكيف ؟ ولماذا ؟

وكيف نملك القدرة وإرادة الفعل لخدمة ما هو إنسانى فى آفاق مفتوحة للاختبار والتجريب فى حرية وفى حركة جدلية غنية بمحتواها . ذلك لأنه ليس هنالك فن يمكن أن يوجد بدون تجريب وإن كل حركة جديدة هى روح التجريب ومسرح الصم الراقص حركة جديدة باعتباره تمرد على السائد والمألوف وتعتبر رؤية جديدة خالصة ولها أدواتها الخاصة بها . على أن يستهدف للمضامين الجديدة وتدعمها روح المغامرة لأن الرؤية الجديدة تتطلب ركوب المغامرة لخلق أدوات فنية مغايرة فى معادلها الموضوعى والحسى . فالتجريب هو لاختراق آفاق جديدة تكون إسهاماً فى النضال من خلال نظرة المبدع بالواقع وبالقوانين الموضوعية لتطور المجتمع . فالمجتمع ليس صناعة وزراعة وتجارة فقط إنما الفنون هى صلب المجتمع المتحضر والمتحدث الرسمى باسم المجتمع ككل . وسنصادف من يعترض طريقنا بل ويصرخ فى وجوهنا هل الأطفال الصم قادرين على الرقص المسرحى بل والإبداع فيه برغم إعاقتهم السمعية ، وبرغم هذه الانتقاضات والمعارضات التى سنصادفها ويتعثر بها مشوارنا الإنسانى ، إلا أننا سنذكر كل المعارضين والمندهشين بأن المسرح للجميع وليس الفن حكرا على أحد وهل يعقل بأن يكون الفن حكرا على الأسوياء دون المعاقين وأطالب كل أولئك المندهشين

obeikandl.com

بأن يتذكروا بيتهوفن ذاك الموسيقار الأصم الذى سحق أعاقته وانتصر عليها وتمكن من فرض إبداعه على أرض هذه الكون ، وخلف وراءه تحفا موسيقية غاية فى الإبداع ستبقى أبد الدهر شاهد على عبقريته وقدرته الفائقة لتحدى إعاقته وسيبقى مثل أعلى يحتذى به الصم والأسوياء على السواء ...

إن مسرح الصم الراقص الذى نحن بصدد الحديث عنه وإن بدا أمرا مستحيلا إلا أن تحقيقه ممكنا . ولقد أكدت التجربة بأنه لا مستحيل على وجه الأرض ، ومسرح الصم الراقص يفرض نفسه فى ظل حاجة الأطفال الصم الملحة لوجود مثل هذا المسرح المغاير والمختلف ، وإذا كانوا هؤلاء الأطفال قد حرموا نعمة السمع والقدرة على النطق فقد وهبهم الخالق ملكة الإبداع وقدرة فائقة على التعبير بالجسد . فبداخل هؤلاء الأطفال طاقات إبداعية هائلة فى انتظار من يكتشفها ويفجرها ، كما أن هؤلاء الأطفال يحاولون قدر استطاعتهم الإفلات من واقعهم الصامت القبيح ويقولون له "لا" والإفلات هنا ليس معناه الهروب من القدر أو الانعزال عن العالم المحيط بهم . بل يريدون ذاك الهروب النابض بالتحدى فهم يريدون أن يفروا من وحدتهم وعزلتهم ويلقون بأنفسهم فى أحضان مجتمعهم الرحب وإن التجربة الشخصية لى على مدار خمسة أعوام فى العمل المسرحى مع هؤلاء الأطفال أكدت بأن هؤلاء الأطفال من خلال المسرح ومن خلال مشاركتهم الفنية يشعرون بكيانهم وبأهميتهم وبأنهم مرغوب فيهم وغير مهمشين فى المجتمع بل جزء منه ولهم دور فيه ويسعون لإثبات ذاتهم والتأكيد على دورهم الفعال فى المجتمع فهم يرفضون التهميش بشدة ويرغبون فى المشاركة يرغبون فى دمجهم داخل المجتمع ولكن بشكل إنسانى حضارى وهم من خلال مشاركتهم الفنية الراقصة يتمردون على السائد والمعروف . يتسلحون بإرادتهم

ويتحدون إعاقتهم فهم يريدون أن يقولوا لكل من حولهم أنهم قادرون على الإبداع برغم إعاقتهم السمعية ، ويتجلى هذا الإبداع حين يقومون بتقديم أحد العروض الراقصة الهادفة على قطعة موسيقية لا يسمعون من أنغامها شيئا وقمة الإبداع حين يغلف أداءهم بالهارمونى وينبض بالإحساس الصادق أنه الانسجام ، انسجام الجسد مع الموسيقى وكما ينبغى أن يكون ...

أن هؤلاء الأطفال يسعون تجاه الاندماج فى المجتمع عبر عمليات الإرسال والتلقى بينهم وبين جمهور الأسوياء الذى يشاهد أعمالهم . فهم يدركون بأن العرض الفنى الحى يحيا وينتهى فى سياق الحياة اليومية للمرسل والمتلقى والمسرح هو ذاك المكان الذى يجمع بين الصم والأسوياء لفترة زمنية محددة ، وكم من مرة شعرت فيها بأن هناك حديثا خفيا بين الأطفال الصم وهذا المسرح ، فهم على خشبة المسرح وبمجرد أن يرفع الستار يشعرون بوجودهم وبحياتهم وبكيانهم الحقيقى وآدميتهم . كما أنهم يتفهمون جيداً علاقتهم بالجمهور وبالخشبة والكواليس والإضاءة والملابس والديكور وحتى الستار. فهم يدركون بأن الستار هو الحاجز الذى يفصلهم عن الجمهور تماماً كإعاقتهم ببساطة أنهم يرون أن المسرح هو الحياة وأن أهميته بالنسبة لهم لا تقل أهمية عن أهمية الماء للنبات. فهم من خلال المسرح يحققون التواصل مع مجتمعهم ومع الأسوياء ويفصحون عن أنفسهم ويتركون لإبداعهم العنان ويعبرون بصدق بالغ عن معايشتهم لمختلف القضايا الإنسانية وأتذكر في هذا الشأن أنه وأثناء أداء الأطفال (فرقة الأطفال الصم للرقص المسرحي) لعرض الملائكة أيضاً تموت . من تصميمي وإخراجي وتدور أحداثه حول الوضع المتأزم في الضفة الغربية وفي هذا العرض كنت أستعين بشاشة عرض يتم عليها عرض مشاهد من أعمال العنف والقمع التي يتعرض لها

الأطفال في فلسطين وفوجئت أثناء العرض بالفتيات الصم من أعضاء الفريق في حالة بكاء مرير وهن يؤدين أدوارهن على خشبة المسرح بعد أن تابعن تلك المشاهد. وأعتقد بأن هذا الموقف الإنساني أكبر دليل على مدى وعي هؤلاء الأطفال وإدراكهم لما يدور حولهم وبعد نهاية العرض أعربوا لي عن شديد سعادتهم لمجرد شعورهم بأن لهم دور في عرض جانب إنساني من تلك القضية المزمنة...

وكم من مرة قبيل رفع الستار كنت أراهم يحفزون بعضهم البعض ويؤكدون على ضرورة حسن الأداء وأعتقد أن هذه المشاعر النبيلة ناتجة عن إحساسهم بأهمية دورهم في طرح جانب من هذه القضية وبأهمية القضية التي يتناولها العرض. لذا فيجب علينا أن نبحث في الإنسان من خلال الفن ، وفن المسرح أكثر من أن يكون موضوعاً جمالياً أو وسيلة للترفيه فقط ....

فالإنسان منذ قديم الزمان وقع تحت التأثير البيئي والتكوين الذاتي مما جعله يغير في أساليب الفن وذلك واضح من خلال تطوره على مر العصور. حيث أن التطور الحضاري يبرز القدرات العقلية ويساعد على إعداد الفرد في ارتباطه بالمهام المتوقعة منه حتى ولو كان هذا الإنسان أصم ، ومن هنا يمكن القول بأن من يؤمن بعظمة الإنسان وما فيه من قوى خلاقة وبما تحويه طبيعته الداخلية من الطاقة يكون في وسعه السيطرة على القوى الطبيعية الخيرة ضد الشر ومن ذلك تتولد الثقة بالنفس وليس الخداع . والمسرح هو الذي يساعد الطفل الأصم على أن يخرج من عزلته ويحيي إرادته ويقوي عزيمته ليتفجر الإبداع بداخله ، ويفيق إذا كان قد وقع تحت التأثير السلبي لإعاقته فإن لتأثير المسرح على الأطفال الصم فعل السحر ، ولا يخفى علينا بأن عالم المسرح هو عالم مركب فيه من الرشد والعقل بقدر ما فيه من العجيب والغريب والجنون ، عالم المسرح هو عالم آخر ،

عالم يتعايش فيه المعروف والمجهول والعقل والجنون والعادي والمدهش والغريب والبعيد والممكن والمحال والوجود والعدم وهو بالتأكيد لعبة جماعية أو بالأحرى حلم جماعي . هذه اللعبة (الحلم) لها قواعدها ولها مفاتيحها ولها كلمات أسرارها ولها سحرها الحلال.

إن رقصة الأطفال الصم التعبيرية مغامرة تماماً كالحياة ولكنها مغامرة مركبة ومعقدة ودقيقة وتكمن المغامرة في المرور من العتبات الخطرة لأن رقص الصم في معناه الحقيقي هو خروج من البسيط إلى المركب ومن المحسوس إلى المتخيل ومن المعروف إلى المجهول ومن الظلمة إلى النور ومن النور إلى النار ومن اليقظة إلى الحلم ومن البيت إلى العالم ومن العالم إلى الكون . ففي هذه المغامرة المعرفية والجمالية يعبر الأطفال الصم عن الواقع بغير الواقع ليكشفوا عن خبايا حياتهم الصامتة بعيداً عن الانعكاس الآلي أو النقل الحرفي . إن في رقص الطفل الأصم تنكر وهذا التنكر ليس هروباً بل مواجهة والقناع الوهمي الذي يرتديه الراقص الأصم لا يصادر الوجه ولكنه يضاعفه ويعدده ويدمر أحاديته الظاهرة والخادعة. إن الحديث عن عالم الصم الصامت واقتحامه وفك رموزه يصبح هو ذاته مغامرة فوق مغامرة بسبب صراعه بين الإثبات والنفي والحضور والغياب . كما أن مسرح الصم الراقص يتطلب التجهيز الحقيقي والجدي ذاك التجهيز الذي يسبق عملية الولادة ، وهذا يعني اجتهاداً حقيقياً باتجاه هدف وغاية مشروعة في البحث والتجريب والاستلهام للوصول إلى خصوصية.

إن مسرح الصم الراقص نابع من حاجة الأطفال الصم إليه وهو منهج يستند إلى واقع ويتطلع إلى هدف وليس إلى فراغ وهو ثورة على الصيغ والأساليب الموروثة ونشاط تنويري ليصبح موقفاً فكرياً وفنياً في وقت واحد ...

إن مسرح الصم الراقص حركة تصادمية متمردة على السائد والمألوف والمتعارف عليه أنها ثورة فنية حديثة من أجل مسرح مغاير ومتميز داخل حركة جماعية لخلق إبداعات جديدة ...

والمسرح هو التلاقي في اللحظة – الآن – وفي المكان – هنا – وهو بهذا فضاء للجذب وفضاء لـ (التكامل والتنافر – والاختلاف والائتلاف) ولعودة الواحد إلى الجماعة وعودة الفرع إلى الأصل ، كما أنه بحديثنا عن مسرح الصم الراقص والدعوة لقيامه في ربوع الوطن العربي فإننا بذلك نسعى إلى ارتياد ميدان غير مطروق واقتحام ما لم يقتحم من ذي قبل والدخول في عالم بكر لا نعرف حدوده ولا آفاقه وأدعو إلى بذل كل المبادرات والاجتهادات الرامية إلى تأسيس (مسرح الصم الراقص) مسرح يحيا على رؤية فكرية وجمالية وأخلاقية ويتطلب أن يستعيد الإنسان إنسانيته وأن تستعيد الحياة حيويتها وأن يتم تحرير الإنسان الأصم جسداً ونفساً وروحاً وأن تكون الفنون القائمة على أساس (التعبير الحر للإنسان الحر في المجتمع الحر) أننا من خلال إعلاننا عن مسرح الصم الراقص الجديد ، لا نقترح فقط مسرحاً آخر ولكننا نقترح عالماً مغايراً ونقترح فنون مغايرة ونقترح قيام علاقات إنسانية جديدة ومتجددة ولابد من إيماننا الصادق بأن الطفل الأصم إنسان كأي إنسان عادي له حق الرعاية المتكاملة وله حق في الإبداع ، أي أن الفرد الأصم مواطن له حق المواطنة وعليه واجباتها بقدر استطاعته وتحمله لمسئوليته ولابد من ارتباط هذه الحقوق بمبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد.

ولا يخفي علينا أن بعضاً ممن حرموا بعض الجوارح قد عوضهم الله من فضله مواهب أخرى تضيف إلى الحياة خيراً عظيماً .

وعلى أساس مبدأ تكافؤ الفرص فلا بد من إعادة بناء دستور المسرح وإقامة علاقات أخرى فيه . علاقات أكثر حقيقية وإنسانية وأكثر حرية ومسئولية. وبما أن مسرح الصم الجديد مشروع حضاري فإن هذا الفعل لا يمكن أن تحققه إلا الجماعة الفاعلة . الجماعة التي تطمح لأن تصبح مجتمعاً مغايراً وأن مهمة هذه الجماعة هو أن تستخدم من الهدم وسيلة لبناء الحديث والمتخلف لإقامة المتعقل والمخالف القائم على نقد التجارب. إذ أن الهدف من قيام (مسرح الصم الجديد) هو خلق الإبداع والذي يفيد إحضار الغائب وإنطاق الصامت وتفعيل الساكن وفتح المنغلق وتجديداً للقديم وجعل العادي مدهشاً والواقع حلماً والممكن كائناً وجعل الحياة اليومية الرتيبة قصيدة شعر تنبض بالحياة والحيوية وبهذا يكون مسرح الصم الجديد مرادفاً للتغيير. فإن المسرح يغير حقاً ويبدأ هذا التغيير من ذاته أولاً لأنه فناً حياً يفعل وينفعل ويؤثر ويتأثر ويعطي ويأخذ ، والمسرح الذي نحن بصدد الحديث عنه يهدف إلى إعادة النظر في العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع (صم وأسوياء) أو إعادة تأسيسها على ركائز متينة وحقيقية تعيد الاعتبار للإنسان والمجتمع والفن ، ولابد من الأخذ في الاعتبار بأن الجمهور العادي لن يقبل هذا المسرح الجديد إلا بمرور الزمن وبوجود حالة من التراكم الكمي والنوعي ومن هذا المنطلق لا بد من السعي وبجدية إلى التأسيس لهذا الضيف الجديد ولا بد من تحريكه ورسم ملامحه ودفعه قدماً لأن يكون علامة إيجابية تدل على وجود حقيقي يحرك السواكن وقابل للتطور والتطوير والتنوير وغالباً ما يأتي الجديد المناسب بعد التجارب والبحث في المجهول لإيجاد مفاهيم ومعطيات تجريبية جديدة تتجاوز التبعية وتضمن الخصوصية . إن العالم والتاريخ يحوي تجارب عديدة ومتضاربة وكل تجربة تختلف عن الأخرى وذلك بفعل منهج الفنان

ورؤيته للعالم من خلال تفاعله مع مفردات الواقع الجديد الذي يفرض نفسه في زمن العولمة .

إن التجربة في العالم العربي ضرورة حتمية حتى لا يتجمد ويتحجر المسرح في هذا الزمن الطائر. فجوهر التجريب أن تظل هناك تجارب وأشياء جديدة مدهشة لا تقف عند نقطة معينة بل تتحرك دائماً إلى الأمام في استكشاف وغزو المجهول ، ويقفز سؤالاً ليطرح نفسه. وهل هناك أجمل وأدهش من مسرح الصم الراقص؟ أليس هو بمثابة غزو للمجهول وتأثيث جديد للإبداع؟ إننى أرى منتهى الإبداع في أن نأتي بمن حرموا نعمة السمع لنعزف بتعبيراتهم الحركية الراقصة سيمفونية إبداع حقيقية . ولربما كان ذلك منتهى الجنون ، منتهى التمرد . لكنه في النهاية منتهى الإبداع.

obeikandl.com